الفصل الأول

التنمية ومراحلها

وحاجة مصر إليها

ويضم الموضوعات التالية:-

- **مشروع التنمية وتاريخه**
- **هل تحتاج مصر إلى نهضة**
- **مراحل التنمية**
- **المفهوم الاسلامى للحضارة**
- **التنمية الحضارية الإسلامية**

obeikandl.com

obeikandl.com

مشروع التنمية وتاريخه

هو مشروع أطلقته جماعة من الشباب المصرى المهتم بنمو ونهضة مصر وعن تاريخ مشروع التنمية فى مصر ففي عام١٩٩٧ كانت أول محاولة لاعداد مشروع التنمية وظهرت في كتاب للدكتور عبد الحميد الغزالي وآخرون.

- عام ٢٠٠٤م نجحت فرق عمل متطوعة داخل وخارج مصر في وضع اطار فكري واستراتيجي للمشروع بكامله وفي مارس٢٠١١ تم تكليف المهندس خيرت الشاطر بإدارة فريق العمل لوضع الإجراءات التنفيذيه والخطط اللازمة وأصبح للمشروع اطار تنفيذي تفصيلي يشمل التمويل والتشغيل والمراحل ومشروع التنمية حصاد جهد لما يقرب من ١٠٠٠ عالم وخبير ومتخصص ومعظمهم من الشباب الحريص على مصلحة البلاد والأجيال القادمة وقد عمل علي صياغته ١٦لجنة استشارية متخصصة كما قامت فرق العمل بزيارة أكثر من ٥٠ دولة للإطلاع على تجاربهم ومن هذه الزيارات تم التوصل إلي٢٥ تجربه رائده في٢٥ دولة

حتي يجمع مشروع النهضه تجارب النجاح في العالم ليتم اختيار ما يناسب ظروف البلاد وطبيعتها ومواردها من هذه التجارب ٠

تعريف التنمية

التنمية هى الوثبةُ في سبيل التقدّم الاجتماعي أو غيره كما فى المعجم والمعجم الوسيط وأما التنمية اصطلاحاً فهى الارتفاع والارتقاء الفكري ،لأن الأمة لا يمكن أن تنهض إلا إذا كان لديها كم من الافكار تؤمن بها وتُبدع في استعمالها،والتنمية يمكن أن تكون صحيحة أو فاسده تبعاً للأفكار،وما يُشاهد من تقدم في العلم والعمران ما هو إلا نتاج التنمية والإبداع في تطبيق الأفكار حتى لو كانت خاطئة كما هو حادث عند الغرب الآن وكي يتسنى للمرء أن يدرك صحة هذه التنمية نذكر تعاريف بعضها:

الحضارة : كثيراً ما نخلط بين المفهومين ونجعل أحدهما مرادفاً للآخر، وإن كانا لفظين عربيين فلهما معنيين مختلفين،وعدم التمييز بينهما أدى إلى التخبط في الأخذ بهما دون قيد أو شرط والحضارة اصطلاحاً مجموع المفاهيم عن الكون والإنسان والحياة ٠

أما المدنية اصطلاحاً فهى الأشكال المادية المستعملة في الحياة من أدوات ومعدات ولوازم في الحياة العامة ،مثل السيارة والطيارة والعمران والكمبيوتر وغيرها، فالتنمية هي التي تؤجج فى الإنسان فكراً متألقاً وتحثه على الابداع وتدفعه إلى الاكتشاف والاختراع،وهذا الأمر لا تقوم به إلا الدول،فالدول هي المؤثر والمحرك في تبني أفكار المجتمع وتطبيقها في كافة المجالات،فأمريكا مثلاً تبنت الافكار الرأسمالية وطبقتها في كل المجالات حتى في السياسة فأبدعت في استعمال هذه الافكار وتألقت وقادت الأمم، رغم عفونة هذه الأفكار وعدم موافقتها لفطرة الانسان وبنظرة سريعه في سجلات التاريخ نرى كيف كانت أمة الإسلام في الصدر وقيادة الأمم والشعوب الأخرى فكرياً وعلمياً وهي نتاج تطبيق الاسلام ٠

هل تحتاج مصر إلى نهضة

تحتاج كل الأمم في مراحل معينة من تطورها إلي مشروع ثقافي وسياسي كبير يعيد صياغة أهدافها، ويوحد صفوفها، ويعبئ مواردها، ويحفز قياداتها، ويجدد الثقة في مستقبلها ويتخذ هذا المشروع أحياناً شكل العقيدة الدينية، وأحياناً أخري شكل الثورة السياسية، واحياناً ثالثة شكل رؤي واسهامات فكرية ويجد عدد من هذه الرؤي والاسهامات طريقه إلي التنفيذ، إما بتبنيه من جانب من بيدهم صنع القرار، أو باقتناع

قطاعات مؤثرة في المجتمع بأنه يمثل أفضل طريق للتغيير والتطوير.

وفي مصر، تعددت محاولات بناء هذا المشروع الكبير علي مدي القرنين الماضيين، وخلف كل محاولة كانت هناك رؤية وتصور ما فكانت هناك رؤية خلف تجربة محمد علي العملاقة لبناء مؤسسات الدولة المصرية الناشئة وتحديثها وكانت هناك رؤي خلف تجارب النضال من أجل تحقيق الاستقلال عند أحمد عرابي ورفاقه عام ١٨٨٢، وأخري لدي مصطفي كامل ومحمد فريد وقيادات الحركة الوطنية حتي نشوب الحرب العالمية الأولي، وثالثة لدي سعد زغلول وقادة ثورة١٩١٩، وزعماء المرحلة التي أعقبتها،ورابعة عند جمال عبد الناصر وثورة١٩٥٢، وخامسة خلف مجموعة السياسات التي دشنها أنور السادات كما كانت هناك رؤي لمفكرين إصلاحيين وتيارات سياسية عديدة مارست دورها في تكوين العقل المصري الحديث.

كانت هذه الرؤي نتاج عصرها وظروفها، وتأثرت بالواقع الذي نشأت في إطاره، وتفاعلت معه كما أنها مثلت تطور المجتمع وفئاته الاجتماعية وقواه السياسية ومع أن حظ هذه الرؤي أختلف في التطبيق فأنها جميعا شاركت بدرجة أو بأخري في بناء النسيج الثقافي للفكر المصري المعاصر وتشكيل مفاهيم متجددة للنهضة واستخدم قصداً تعبير التنمية لأن التنمية كمفهوم حضاري متكامل يتجاوز المفاهيم المتداولة في

العلوم الاجتماعية مثل التنمية الاقتصادية أو التحديث أو التغيير الاجتماعي، فالتنمية هي كل ذلك وقد انخرط في نسيج متكامل من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية وعندما تدخل روح التنمية مجتمعاً ما، فإن النشاط يدب في كل أوصاله فالتنمية هي حركة مجتمع بأسره يتحرك صوب هدف أسمى أو مستقبل أفضل.

وبحكم معني التنمية، فإن مضمونها الفكري والأخلاقي يختلف من مجتمع إلي آخر، ويعكس التاريخ الاجتماعي والثقافي لكل منها، وهي أيضاً بحكم تعريفها ليست عملاً فردياً يقوم به أحد المبدعين من المفكرين أو العباقرة من رجال السياسة، وليست مجرد برنامج لحزب من الأحزاب بل هي خلاصة لتجربة شعب في تفاعله مع الواقع ونقطة الانطلاق لحركته نحو المستقبل.

وعندما نبحث عن معني التنمية في سياق مجتمع ما فإنه من الضروري الربط بين الماضي والحاضر وفي حالة مصر مثلا يتطلب ذلك أن ننظر إلي تاريخها القديم والمتوسط والحديث من منظور التغير والاستمرار والتجديد فمصر مجتمع قديم وجديد معاً قديم بالمعني التاريخي حيث تبلورت وحدته السياسية من عهد مينا وتعاقبت عليه مراحل وثقافات تركت كل منها بصماتها وجديد بالمعني السياسي حيث شهد ثورات١٨٨٢،٢٠١١،١٩٥٢،١٩١٩ التي عبرت كل منها عن

طموحات هذا المجتمع في التقدم والتنمية.

لكن مصر تعرضت خلال العقود الأخيرة لتحولات مهمة شملت منظومة القيم وأساليب الحياة وشكل الخريطة الاقتصادية والاجتماعية، والمؤكد أن هذه التحولات لم تكن متناسقة، ولم تؤد إلي إيجاد هيكل اجتماعي متبلور أو واضح المعالم بقدر ما أدت إلي ما يمكن وصفه بحالة اهتزاز عنيف في نسق القيم والمعايير الموجهة للسلوك الاجتماعي كما أدت إلي عدم استخدام الموارد بالشكل الأفضل وفقاً للفرص المتاحة، حدث هذا في ظروف تميزت بالتغير السريع في السياسات علي المستويين الداخلي والخارجي رافقها تغيرات مهمة علي المستويين الإقليمي والعالمي وعندما نتطلع إلي رؤية للمستقبل من منطلق التنمية، فإننا لا نستطيع أن ننفصل عن هذه الخبرة التاريخية، بل من المهم أن نستفيد منها ونطورها في سياق معطيات الغد ولكي نفعل ذلك، فإنه من الضروري أن نعرف كيف فهم المصريون معني التنمية وتوضح قراءة لتاريخ مصر الحديث أن عملية التطور الاجتماعي فيه اتسمت بسمتين رئيسيتين أولاهما،أن إدخال أنماط جديدة في المؤسسات ومسالك الحياة المختلفة لم يكن إلغاء للقديم، وإنما تعايش القديم والجديد معاً وتطور كل منهما في مجاله، يتصارعان أحياناً، ويتعايشان أحياناً أخري وثانيهما، حدوث انقطاع متتالي في مسار عملية التطور، ذلك أن

تفاعلات المجتمع المصري أدت أحياناً إلي حالة من ضيق الصدر من جانب القائمين بالأمر، وأحياناً أخري إلي التوقع السريع للنتائج، وعدم إعطاء فرصة لأي سياسة حتي تؤتي ثمارها، أو ضرب التجربة برمتها من الخارج بتأثير عوامل دولية وهكذا، فإن الأخطاء التي أفصحت عنها كل تجربة لم تؤدي إلي تقويمها وإصلاحها، وإنما إلي إجهاضها والتنكر لها والتخلى عنها والبدء في طريق جديد ٠

إن تفاعل هاتين السمتين أدي إلي تبلور حالة نفسية متميزة في لحظات التحول أو الأزمة أو الشعور بالخطر، من أبرز معالمها قدرة المجتمع علي استدعاء مختلف الأفكار والمفاهيم التي أثرت في تاريخه وتعبئتها في مواجهة هذه اللحظة فالقديم في بلادنا لا يزول تماماً، وإنما يظل جزء منه يعيش بيننا، ويستطيع المصريون الدفع به إلي مقدمة الصفوف عندما تقتضي الظروف ذلك وهذا ما يفسر بانوراما الأفكار والتيارات السياسية التي تشهدها مصر اليوم، والتي نهلت من منابع مختلفة، ونشأت في ظروف تاريخية متباينة وهو ما يخلق مشكلة في التعامل مع المستقبل فمن خلال السعي غير المنتظم نحو الجديد سحب المجتمع المصري وراءه كل القديم وبدلاً من أن يربط المجتمع نفسه برؤية للمستقبل يتسلح فيها بكل ما هو قديم لمواجهة صنع الجديد، فإن ما حدث أننا نعيش حاضراً يخترقه الماضي وأفكاره وثاراته ورواسبه

وأساطيره من كل جانب، في نفس الوقت الذي يسعي فيه دعاة الإصلاح والتطوير إلي طرح سياسات ومحاولات لتطوير الواقع حتي ينفذ فيه المستقبل، أو ينفذ منه إلي المستقبل في هذا السياق فإن الأمر المؤكد أن مصر تحتاج إلي مشروع ثقافي وسياسي واقتصادى يطرح رؤية جديدة لمستقبلها رؤية متكاملة تدخل في اعتبارها ظروف العالم المتغير، وتضع صورة واضحة للمستقبل المنشود وتتجاوز الأفكار الخاصة بالسياسات والقطاعات النوعية(١) وتقدم صورة أشمل لمصر المستقبل ونحن لا نريد إعادة اكتشاف العجلة فهذا ما حدث في كل الدول التي حققت تقدماً ونهضة والتقدم يحدث فقط باستناد الإصلاح الجزئي إلي رؤية أشمل للتقدم والتنمية رؤية تقترح الصورة الأعم لحركة المجتمع ومستقبله رؤية تحرك القدرات الأخلاقية والمعنوية لجمهور الناس وتخرج أفضل ما فيهم وتطلق قدراتهم وإبداعاتهم لبناء المستقبل.

مراحل التنمية

للنهضة مراحل تمر بها فى بناء الأمم والحضارات الأمم وهي:

١- المرحلة الأولى في قطار بناء الحضارة الصحوة التي تصحو بها الأمم من غفوتها وتنهض به من سباتها، وسمة هذه المرحلة الحركة

الذاتية والانطلاق التلقائي ولكنها مرحلة ضرورية في بيان همة الأمم فيما تريد.

٢- مرحلة اليقظة حيث ترشيد الحركة الذاتية، وهي مرحلة تأسيس

١-عن مقال للدكتور على الدين هلال منشور على النت - بتصرف

قيادات الأمة؛وبناء الشخصية المسلمة الواعية المدركة؛ فتنتج لنا قيادات تحسن التعامل مع تاريخها،وإدارة حاضرها،واستشراف مستقبلها، وهذا ما يدفع الأمة إلى نهضتها.

٣- المرحلة الثالثة،وهي المرحلة التي تتشكل فيها ملامح الأمة، وتتسم بالرقي في أربعة مجالات أساسية: النظام السياسي، والموارد الاقتصادية ، والقيم الدينية والأخلاقية، والعلوم والفنون، وهي عناصر الحضارة الأربعة، وهي بشائر تحقيق القاطرة الأخيرة، وهي بناء الحضارة ولقد عاشت مصر زمناً طويلاً فيما يسمى بالصحوة الإسلامية دون أن نرى ملامح للمرحلة التالية لها وهي مرحلة اليقظة، ودون أن تتمخض هذه المرحلة عن وعي كامل بمحددات تلك المرحلة؛ وما تحتاجه من مهارات وإمكانات تمكنها من عمل نقلات وقفزات نوعية في طريق التنمية والريادة؛ ولعل هذا ما تسبب في تأخير الأمة وتأجيل نهضتها، وكان ذلك بسبب الظلم الواقع على من ظهر من الرواد والتحالف مع الفساد،

والبغي الذي قتل النخوة وأضاع الرجولة وقضى على الإخلاص والحوافز الإيمانية والوطنية، وترك الناس بلا هوية أو عزيمة.

المفهوم الإسلامي للحضارة

إن تأصيل مفهوم أى مشروع في ميدان الثقافة الإسلامية يكون من خلال التفرقة بين دلالات الاستخدام الغربي المحملة بدلالات التجربة الحضارية الغربية، والاستخدام العربي الإسلامي الذي يجب أن يكون حاضراً ليمثل النموذج الإسلامي المرتبط باللغة العربية والإسلام وذلك بالرجوع إلى الأصل اللغوي للمفهوم ودلالاته سعياً إلى المعنى الحقيقي المجرد من خصوصيات الاستعمال التاريخي ولبيان مفهوم تركيب مشروع التنمية فهو يتشكل من اللفظين كالآتي:

أولاً: مشروع: إن المفاهيم المستعملة في مجال الفكر الإسلامي المعاصر تستلزم الرجوع إلى المعنى اللغوي والقرآني؛لأن الاستخدامات الشائعة في الفكر المعاصر لا تسلم من التأثر بالفكر الغربي الذي له ظروفه الثقافية الخاصة به، التي أنتجت المفاهيم والمعاني والأفكار المرتبطة بتطوره الحضاري ومذاهبه الفكرية فمثلاً يلاحظ أن ما يقوله المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية عن مشروع مصطلح أساسه اقتصادي وقانوني، وقد استعمله الوجوديون للدلالة على كل ما ينزع به الفرد إلى

تغيير نفسه أو تغيير ما يحيط به في اتجاه معين(١)، فالإنسان عندهم كله مشروع في طريق التكوين حيث يذهب أندريه لالاند في موسوعته الفلسفية إلى أن هذه الكلمة تستعمل بمعنى واسع جداً، خصوصاً عند

١-المعجم الفلسفي: مجمع اللغة العربية ص ١٨٣

الكتاب الوجوديين[١] لتدل على كل نزوع للفرد إلى تغيير ذاته وتغيير مايحيط به في اتجاه معين وهي أفكار بعيدة عن أية تعاليم دينية، فالوجودية مذهب يقوم على إبراز الوجود وخصائصه، وجعله سابقاً على الماهية، وينظر إلى الإنسان على أنه وجود لا ماهية، ويؤمن بالحرية المطلقة التي تمكن الفرد من أن يمنع نفسه بنفسه ويملأ وجوده على النحو الذي يلائمه(٢) وعلى هذا فإن تأصيل مفهوم مشروع في ميدان الثقافة الإسلامية يكون من خلال التفرقة بين دلالات الاستخدام الغربي المحملة بدلالات التجربة الحضارية الغربية، والاستخدام العربي الإسلامي الذي يجب أن يكون حاضراً ليمثل النموذج الإسلامي المرتبط باللغة العربية والإسلام وذلك بالرجوع إلى الأصل اللغوي للمفهوم ودلالاته سعياً إلى المعنى الحقيقي المجرد من خصوصيات الاستعمال التاريخي ٠(٣)

وفي لسان العرب نجد مشروع من شَرَعَ يَشْرَعُ شَرْعًا ، والشَّريعَةُ والشِّرعة، ما سن الله من الدين وأمر به، ومنه قوله تعالى: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ

---

١ - أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية حـ٢ ص ١٠٥٦ - تعريب: د. خليل أحمد ٢-المعجم الفلسفي: مجمع اللغة العربية ص ٢١١ ٣-- الحضارة الثقافة المدنية: دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم- د نصر محمد عارف : - ص ٥٥.

عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا) (١) وقوله تعالى (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)(٢) ومن خلال الدلالات السابقة يمكن تَلَمُس دلالات تساعد في بلورة المفهوم من حيث الآتي:

أ- الهدف: التنمية وثبة في سبيل التقدم الاجتماعي

ب- الحالة الفكرية والوجدانية: ترتبط التنميةبالحركة والنشاط واليقظة

ت- والصحوة التي سبقها حالة غفلة وثبات ونوم، تسببت في فوات أمور مهمة تطلبت سرعة النهوض والتنمية.

ج- ومن حيث البُعد الزمني والاجتماعي: ترتبط بالحاجات الضرورية والحياتية، مما يتطلب الإنهاض بالتعبئة الفكرية للمجتمع لتجاوز مرحلة السُبات والتأخُّر.

ولما كان القرآن الكريم هو المنهج والطريق الذي أخرج الله به الناس من ظلمات الجاهلية إلى أنوار الإسلام،وكان منطلق التنمية والتقدم الروحي والمادي في العالم الإسلامي، فإن بداية عصر التنمية بدأ منذ هذها الانطلاق، وبهذا تكون الدلالات اللغوية والمنهج المؤسس للنهضة هي الأسس التي يجب أن يفهم على ضوئها مفهوم التنمية المنشودة

١ـ الجاثية: الآية ١٨ ٢ـالمائدة: الآية ٤٨

للعالم الإسلامي اليوم؛لأن ذلك من مستلزمات تأصيل المفهوم والاستخدام الشائع لمفهوم التنمية في الفكر العربي المعاصر قد ألقى بظلاله على اللفظ العربي وأصابه بمعانٍ ودلالات محملة بالتجربة الحضارية الأوروبية، فكثير من المفكرين العرب المعاصرين يقصدون بالتنمية عصر التنمية في الفكر الأوربي، (١) في حين أن المفهومين: العربي والغربي يختلفان جذرياً على المستوى العقدي،والفكري والزمني فقد تطور فكر التنمية في الثقافة الغربية بسبب الصراع بين العلماء التجريبيين ورجال الكنيسة على نحو أفرز ثلاثة عصور فكرية هي:

أـ عصر التنمية: كان قوامه في أوروبا إحياء التراث اليوناني الروماني، والفلسفي العلمي، والأدبي، والانتظام فيه، الشيء الذي يعني الإفلات من

هيمنة الكنيسة ووصايتها على العقل والوجدان، وهو ما عرف باسم علم التنمية الجديد، الذي نشأ كرد فعل في ثورة على كنيسة العصور الوسطى(٢) وشغلت القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وامتدت حتى القرن السابع عشر واتسمت بالروح العلمية، والاعتماد على

١- مشروع التنمية العربي د. محمد عابد الجابري ، ص٥٧ و الخطاب العربي المعاصر- د. فادي إسماعيل ص ١٩ ٢-- تكوين العقل الحديث جون هرمان رندال: - ص ١٩٥ و٢٤١- ترجمة د. جورج طعيمة

المنهج التجريبي وانتشار العقل(١).

ب- عصر التنوير: والخصائص الرئيسية للتنوير هي: إيمان الروح أو العقل بقدرته على التحرر من كل ما ورثه من عبودية فكرية وعلى تقرير مصيره، والشجاعة في إخضاع كل الآراء والمذاهب الموروثة لامتحان العقل وحكمه وتشكيل الدولة والمجتمع والاقتصاد،والقانون والدين والتربية بشكل جديد تبعًا لمبادئ وأسس قوية جديدة (٢) .

ج- عصر الحداثة:

وهو امتداد لعصر الأنوار، وقد تطورت الأنوار في القرن العشرين لتكون فلسفة المجتمعات الغربية وثقافتها من حوالي ١٨٥٠م إلى سنة

obeikandl.com

١٩٥٠م،أي الفترة المتفجرة التي حقق فيها المجتمع البرجوازي إنجازات هائلة، تكنولوجية وفكرية، وشهد تحولاً حضارياً كاملاً في ظروف المعيشة والعلاقات الاجتماعية(٣)وتطور الفكر التحديثي المعاصر إلى عدم ما بعد الحداثة وهي نزعة تقوم على النفي والإنكار في الفلسفة

---

١ الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية - د. توفيق الطويل ص ٢٢ ٢- نيتشه- د. عبد الرحمن بدوي: ص ١٢٨. ٣-فلسفة ما بعد الحداثة- سان هاندن - ص ١٤٢- ترجمة: مصطفى محمود محمد.

والأخلاق والسياسة، فتنكر أية حقيقة ثابتة على الإطلاق،وتذهب إلى أن القيم الأخلاقية مجرد وهم وخيال(١)، هذا عن مفهوم التنمية وتطوره في الفكر الغربي إلى عدم ما بعد الحداثة، وهو يختلف عن المفهوم العربي الإسلامي،ولاستكمال بيان مفهوم التنمية الحضارية من المنظور الإسلامي، نقوم بتحليل مفهوم الحضارة وعلاقته بالتنمية

التنمية الحضارية الإسلامية:

لتحديد المقصود بالتنمية من حيث علاقتها بالفكر الفلسفي ، فإنها من هذا الجانب ترتبط بالحضارة بوصفها عملية نهوض اجتماعي، وترتبط بالفكر الذي يؤسسها سواء كان فكراً وضعياً أم فكراً دينياً، وترتبط بالزمن والتاريخ الذي ينشأ من خلاله الفكر المؤسس للحضارة ويتعدد

مفهوم الحضارة بتعدد العقائد والثقافات التي عملت على تشكيله، فلكل حضارة منشأ عقائدي وثقافي،هو الذي يكوِّن هويتها المميزة لها، ومفهوم الحضارة في الفكر العربي المعاصر من المفاهيم التي تأثرت بالمفهوم الغربي الذي له تجربته الحضارية الخاصة، وفلسفته التي يقوم عليها،والتي شكلت مفهومها وهويتها وموقفها من الحضارات والشعوب

١- المعجم الفلسفي- مجمع اللغة العربية بالقاهرة ص ١١٨

الأخرى وارتباط مفهوم الحضارة بمفهوم الثقافة في التجربة الحضارية الغربية بما يشمل من ألوان السلوك والأنظمة والعادات، لا يمكن أن يعطينا مفتاح مشكلة الثقافة في الظروف النفسية الزمنية التي تكتنفها في البلاد العربية والإسلامية(١) وللتأصيل الإسلامي لمفهوم الحضارة فالقرآن والسنة، يكونان المرجع الأول لكل رؤية تحاول الاقتراب من حقيقة المفاهيم والقيم الإسلامية،وكل محاولة فكرية تتناول الحدث الحضاري الإسلامي بالتحليل ولا تأخذ هذا الفهم في الاعتبار، تكون قد تجاهلت المكون الحقيقي للبنية الحضارية للإسلام، كما تبدو في التركيب العقائدي الذي ميّز الحضارة الإسلامية في مقابل كل الأديان (٢) والمذاهب المختلفة على مر العصور والألفاظ الواردة فى القرآن الكريم

بمعنى الحضارة ومرادفاتها تؤسس لمفهوم الحضارة من منظور إسلامي، أما مجمل القرآن فهو نفسه حضارة، عقيدته حضارة، وعباداته حضارة، وشريعته حضارة، ومكارم أخلاقه حضارة، فأنت مع القرآن وفي الإسلام في عالم حضارة، وليس من حق أي مسلم أن يتخلف عن ركب الحضارة(٣) وقد ربط ابن خلدون بين القرآن الكريم وأسباب قيام

١- مشكلة الثقافة- مالك بن نبي ص ٣٩ ٢-أسس مفهوم الحضارة في الإسلام- د. سليمان الخطيب: ص ٣٤٤ ٣- الإسلام حضارة- د. حسين مؤنس ص ١٠.

الحضارات وسقوطها(١)ويذهب إلى أن الحضارة هي :تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه (٢) وهي تزول عند طور الإسراف واتباع الشهوات ويمكن القول إن مفهوم الحضارة في الإسلام يرتبط بالوعي الدائم برسالة القرآن إلى الإنسان، بوصفه خليفة عن الله في إعمار الكون، والفاعلية الإيمانية الدافعة للعمل الصالح في كافة مجالات الحياة، لتحقيق مرحلة الشهود الحضاري على باقي الأمم دون استعلاء أو طغيان أو ظلم وعلى هذا فإن فلسفة مفهوم الحضارة الإسلامية تقوم على الجانب الروحي، والتطبيقي، وقد أغفلت كثير من المجتمعات الإسلامية الحديثة الجانبين معاً فخسرت، أما الحضارة

الغربية فقد حفلت بالجانب الثاني على حساب الأول فصارت حضارة عرجاء،لكن المسلمين يمتلكون الجوهر والروح القادرة على التحضر، فالحضارة ليست مجرد العَرَض الظاهر من قوتها وبنيانها ويذهب د٠ محمد عمارة إلى أن البحث في المفاهيم الغربية عن تعريف للحضارة يُعَدُ خيانة للقضية، فالحضارة في المفهوم الإسلامي هي: العمران بجناحيه: التمدن ويتهذب به الواقع المادي،والثقافة وتتهذب بها النفس الإنسانية (٣)

١- مقدمة ابن خلدون مجـ٢ ص ٥٢٦ وما بعدها ٢- المصدر السابق مجـ٢ ص ٥٣٨. ٣- الإسلام والتعددية- د٠محمد عمارة ص ١٩١

التنمية والتعليم

لم يعد دور التعليم كبوابة للتقدم والتنمية قضية محل جدل أو شك على مستوى كل بلدان العالم بل تشير كل الخبرات الدولية إلى أن عمليات التنمية أو التحديث والنمو الناجحة في مجالات الحياة المختلفة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بدأت من التعليم،وهو ما جعل تطوير التعليم وتحديثه قضية ذات أولوية دائمة،في برامج وسياسات كل البلدان ليس فقط الدول الساعية للتنمية، بل ربما تحظى بقدر أكبر من الأهمية في الدول المتقدمة حتى تحافظ على مستوى تقدمها، وهو ما يمكن أن

نلمسه في دول مثل الولايات المتحدة التي أصدرت تقريراً سمى أمة فى خطر في عهد الرئيس ريجان لينبه كل مؤسسات المجتمع الأمريكي لتدارك مواطن الضعف في نظام التعليم،وفى إنجلترا تبني رئيس وزرائها توني بلير قضية التعليم وتطويره كقضية ذات أولوية أولى وأجدر بالاهتمام والرعاية في برنامج حكومته،أما دول السوق الأوربية المشتركة فقد خصص رؤساؤها قمة خاصة عام ٨٦ عرفت بقمة يوريكا لدراسة مخاطر التخلف العلمي على دولهم، وبحثوا الوسائل الكفيلة بمجابهة هذه المخاطر وكان التعليم طبعا هو أهمها.

هذه الأهمية النوعية للتعليم، وضعته كأحد أهم المعايير في تقويم مستوى نمو ورفاهية وقدرات الدول المختلفة، وهي المعايير التي تجاوزت بالتأكيد في الدول المتقدمة ضمانه كحق إنساني أساسي متوافر لجميع المواطنين،وأصبحت تدور حول نسبة ومستويات ونوعية التعليم، التي تتجاوز معدلات من يقرأون ويكتبون، وأصبحت تدور حول نسبة التعليم الجامعي، التي وصلت في بلد مثل الولايات المتحدة إلى ٦٤% من الشريحة العمرية، وأكثر من ٥٠% في اليابان، و٣٥,٥% في إسرائيل، بينما مازالت مصر تقف عند حدود ١٩%،أيضا من ضمن المعايير التي تستخدم في قياس قدرات الدول ومدى تقدمها نسبة ما تملكه من مهندسين وعلماء ومخترعين إلى كل مليون من السكان.

هذه المعايير وغيرها تعني أن عملية التنمية والتحديث في علاقتها بتطوير النظام التعليمي في بلد مثل مصر يعاني العديد من المشاكل المتشابكة ذات البعد الاقتصادي والثقافي والاجتماعي والسياسي، يجب أن تتجاوز الرؤى التقليدية أو السقوف التي تطرح كأفق يجب الوصول إليه في معظم السياسات والبرامج التي تفصل غالبا بين تطوير النظام التعليمي في مصر وإخراجه من أزمته وعملية تنمية وتحديث المجتمع، فاعتبار التعليم هو مدخل أو قاطرة عملية تحديث وتنمية المجتمع المصري،يجب أن يضع مشكلات النظام التعليمي وإصلاحه وتطويره في بؤرة عملية التحديث والتنمية، كما أن تطوير هذا النظام يجب أن يأتي في سياق تطوير وتحديث كل الأنظمة الأخرى مثل النظام الاقتصادي والسياسي ومتفاعلا ومرتبطا معها، وليس منفصلا عنها.

هذه العلاقة العضوية بين نظام التعليم كنسق اجتماعي، وبين الأنساق الاجتماعية الأخرى، يفرض تجاوز الرؤية السائدة التى تتعامل مع نظام التعليم، كنسق قائم بذاته ومنفصل عن باقي الأنساق الاجتماعية، وبالتالي فالنتيجة الفعلية لعملية إصلاحه هى عدم استجابة كل الإصلاحات لما يمكن أن يطلق عليه عملية التحديث والإصلاح الشامل للمجتمع، فلا يمكن الحديث عن نظام تعليم متقدم في مجتمع كل أنظمته

الاجتماعية متخلفة،والعكس صحيح أيضاً،هذه الرؤية في تحديث المجتمع وتحديث التعليم تستلزم إعادة النظر في العديد من الشعارات والسياسات مثل:

- الشعار التقليدي في مكافحة الأمية الذي يحصر الجهود الفعلية منذ بداية القرن الماضي وحتى الآن، في مجرد مكافحة الأمية الأبجدية.

- السياسات التى تختصر ضمان حق التعليم فى مجرد توفير مقعد دراسي لكل طفل في مرحلة التعليم الإلزامي، بصرف النظر عن نوعية وجودة التعليم الذي يحصل عليه.

- إتاحة التعليم الجامعي لنسبة محدودة من الشباب، عبر سباق لا إنساني لا يكشف عن أي قدرات أومهارات أو ميول فعلية لهذه النسبة المحدودة.

- اختصار عملية تطوير التعليم في مجرد تغيير الكتاب المدرسي، دون النظر إلى باقي مدخلات العملية التعليمية، من مدرس، وأساليب تعليم ونظم تقييم.. الخ.

- أهداف نظام التعليم ذاته ونوعية الخريج المطلوب من حيث امتلاكه لخبرات ومهارات محددة في كل مرحلة تعليمية، وإرتباط هذه المهارات والخبرات باحتياجات التنمية والتحديث، وهو ما يمكن ملاحظته مباشرة في العمومية الشديدة لأهداف استراتيجية تطوير التعليم، مثل تحقيق التنمية الشاملة،أو إقامة المجتمع المنتج،دون ترجمة هذه الأهداف

العامة لأهداف إجرائية قابلة للقياس.

- الدور الاجتماعي للمدرسة، وعزلتها الحالية والمناخ الذي يتعلم فيه التلميذ،والذي يكرس هذه العزلة عن المجتمع ومشاكله وعدم القدرة على التواصل معه، والإستفادة من موارده، وخدماته.

- حزمة القيم التي تتم على أساسها التنشئة الاجتماعية داخل المؤسسة التعليمية،والتي تهمش أو تغيب القيم الدافعة للنهضة والتحديث والممارسات المرتبطة بها، مثل الاعتماد على معيار الكفاءة والقدرة على الانجاز في التقييم، احترام الوقت، قيم الإنضباط فى العمل، احترام القانون، العمل كفريق.

- الحالة العقلية التي يتم إعداد الأطفال عليها، وهي تعلى ما هو غيبي وميتافيزيقي، وتبعد بدرجة كبيرة عن التفكير العلمي المنطقي القائم على ربط الأسباب بالنتائج وتحليل الواقع والقدرة على الاستنباط والاستنتاج .

- الازدواج والتشرذم في النظام التعليمي ما قبل الجامعي والتي نشاهد فيها تعليما (عاما/ فنيا، حكوميا/ خاصا، دينيا/ مدنيا، عاديا/ لغات.. إلخ) تؤدي بشكل مباشر لفوارق واضحة في الأذهان والتكوين والمراجع الثقافية بين أبناء الوطن.

الشيء المثير للإنتباه، الذي يجب أن نتوقف عنده كثيراً أن هذه المشكلات ليست مشكلات طارئة على نظام التعليم في مصر،بل مشكلات

تمتد بجذورها لبدايات نشأة نظام التعليم الحديث،ويكفي استعراض كتاب مستقبل الثقافة في مصر للدكتور طه حسين، الذي صدر في نهاية النصف الأول من القرن الماضي،والذي أكد على أهمية إصلاح التعليم مشيراً إلى أن حياة مصر الخاصة، وتطورها الحديث يقضيان بأن تؤخذ أمور التعليم كلها بالجد والحزم،وأن يكون تنظيمها دقيقاً،والإشراف عليها قوياً،وملاحظتها متصلة ورصد فيه كل المشكلات التعليمية ، وهو ما يؤكد أن أزمة نظام التعليم في مصر تمتد وتتواصل وتتراكم عبر أكثر من حقبة سياسية يشهدها المجتمع المصري وعرف فيها تغيرات اقتصادية واجتماعية عميقة ومتباينة استطاع خلالها النظام التعليمي أن يحافظ على استبقاء جوهره وفلسفته بكل تناقضاتها ومشاكلها رغم أي مظاهر للتغيير والتطوير الخارجي.

وهو ما يؤكده كتاب الدكتور حسين كامل بهاء الدين الذى نشر عام ١٩٩٨، فهو يشخص أحوال أو أمراض التعليم العام فيقول ومع انعكاسات وتداعيات الانفجار السكانى والتزايد الهائل فى أعداد التلاميذ وتحميل الفصول الدراسية فوق طاقاتها وصلت فى بعض الأحيان إلى مائة تلميذ وتعدد الفترات التى وصلت إلى أربع فترات دراسية فى اليوم الواحد، بحيث لم يكن الزمن الذى يقضيه التلميذ فى مدرسته يتجاوز ساعتين أو ثلاث ساعات يومياً تدهورت تماماً العملية التعليمية وتفاقمت

الأوضاع بشكل خطير، أحدث تأثيراً سلبياً فى كل مكونات التعليم وعناصره الأخرى، من معلم ومناهج دراسية وغيرها، كما أحدث انفصاماً بين نظم التعليم وعناصره الأخرى من معلم ومناهج دراسية وغيرها، وأحدث انفصاماً بين نظم التعليم واحتياجات المجتمع والواقع الاقتصادي الجديد، بحيث لا يجد الخريج فرص عمل مناسبة رغم حصوله على الشهادة،لأنها لا تمهده للإسهام فى حركة المجتمع،هذا بالإضافة إلى غياب البعد المستقبلي، حيث ظلت المؤسسات التعليمية معنية بالماضى فبعد المستقبل رغم أهميته غائب تماما عن مناهجنا التعليم ويلح الدكتور حسين على أن تعليم المستقبل، هو ذلك التعليم الذى يعد التلميذ للمواطنة الحرة المتسامحة فى مجتمع ديمقراطي ،وتخلو من النزعة إلى التعصب والعنف والإرهاب حيث أن كل هذه النزعات والممارسات تبدأ فى عقول البشر قبل أن تصل إلى الشارع ويستخدم القنبلة والمدفع .

كذلك يسوق الدكتور حسين كامل بهاء الدين حججه، على أن بداية إصلاح العملية التعليمية هى المعلم، فهو لا يعتبره فقط حجر الزاوية فى العملية التعليمية برمتها، ولكنه يعتبره أيضاً بمثابة قائد الأوركسترا الذى ترتكز مهمته الأساسية فى إطلاق قدرات الفريق الذى يقوده فى المدرسة ولا يخفى على أحد أن إعداد المعلم لهذا الدور يمثل تحدياً خطيراً، خاصة

أن لدينا أكثر من ٨٥٠ ألف معلم تربوا فى ظل نظام التعليم هذا المطلوب تغييره، حتى نستطيع مواكبة العصر.

إذن فقضية تطوير التعليم كمفتاح لتحديث المجتمع المصرى لا تنحصر فقط في نشر التعليم والتوسع في إمكاناته ومؤسساته،وإنما يجب أن تمتد بالضرورة إلى نوعية التعليم وأفاقه، فالتعليم في مصر على سبيل المثال،مازال يوظف لخدمة ما يسمى بتكوين وبناء المواطن الصالح وهو ما يعني عند الترجمة العملية اقتصار التعليم ومضمونه على تهذيب المواطن وتثقيفه، أو بالمعنى الحرفى صياغته حسب نموذج معين ليكون مطيعاً للنظام وملتزما به دون تذمر أو اعتراض أو قدرة على النقد وهو ما عبر عنه الكاتب السوداني الشهير الطيب صالح في روايته موسم الهجرة للشمال، حين قال أنهم يرسلوننا إلى المدارس لكي نقول لهم نعم، وهوما يؤصل له التربوي الشهير باولو فريرى في تاكيده أنهم يعلمون في المدارس ثقافة الصمت والخلاصة هنا أن التعليم في مصر بحاجة لمواطن صالح من نوع جديد لا يقول انعم فقط، بل قبلها يقول لماذا؟ وكيف؟ ولا هنا يصبح التعليم هو الدعامة الصحيحة للحرية التي يشعر فيها الفرد بواجباته وحقوقه وبواجبات مواطنيه وحقوقهم وهو ما ينمي لديه الإحساس بالمسئولية الاجتماعية تلك المسئولية التي تدفعه للتفكير والإنجاز والابتكار لصالح الوطن، وبالتالى لا يمكن هنا

فصل عملية تطوير التعليم واصلاحه وتحديثه عن عمليات موازية فى النظام السياسى تقرن القيم التى تربى عليها أجيال التلاميذ والطلاب بالممارسة الواقعية وتدعمها حتى تصبح جزءا من الثقافة والوعى الاجتماعى السائد.

ركائز التنمية

ما من عمل مهما كان ضئيلاً إلا وكان له ركائز يرتكز عليها ناهيك عن الأعمال العملاقة التى لابد لها من ركائز قوية تعتمد عليها التنمية فى مراحلها المختلفة ولقد أوجز الدكتور على الدين هلال ركائز التنمية المصرية فى أربعة عناصر تعبر عن الشكل السياسى للدولة وعن العدالة الاجتماعية وهى باختصار:-

١- نظام ديمقراطى يحترم حقوق الإنسان ويوسع دائرة المشاركة السياسية لتشمل لجميع المصريين

٢- نظام اقتصادى يعبر عن الموارد الاقتصادية ويحقق العدالة الاجتماعية

٣- منظومة قيم تحقق التوازن بين الأصالة والمعاصرة والقيم الدينية فى المجتمع المصرى تحتل مرتبة عالية وذلك بنظام يحقق التواصل مع العناصر الإيجابية الموجودة فى المجتمع .

٤- الاستقلال الوطنى فى قرارات السياسة الخارجية .